جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

٢٤٤٤
٢٨٧٦٧

العناصر الرمزية في القصة القصيرة

في مصر بعد الحرب العالمية الثانية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

في النقد الأدبي

من قسم اللغة العربية وآدابها

إعداد : فاطمة الزهراء محمد سعيد

٤٥١٨

٨١٢١٦
ف م

إشراف : الأستاذ الدكتور عبد القادر القط

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

فاطمة الزهراء

تمهيـــــد

" كما أن العلوم الطبيعية تضع بين يدى علمـــاء الرياضة مسائل جديدة تدفعهم الى وضع رمـــوز جديدة ، فكذا المطالب المتجددة دائما فى المجتمع وفيما وراء الطبيعة تدفع الفنان الى البحث عن لغـــة جديدة وعن مسائل فنية جديدة " .

" سـارتر " (١)

يؤكد تاريخ الفكر الانسانى الصلة الحية بين الأدب والمجتمع . لقد كان الأدب دائمـا المعبر عن أحوال المجتمعات ، فهو يصوّر أوضاعها حينا ، ويبشر بآمالها حينا آخـــر . ولهذا فان دراستنا للمذاهب الأدبية مثلا ، وتتبع فلسفتها العامة وأصولها المذهبيـة ، يؤدى الى تفهم المناخ الثقافى العام ، والقيم السائـــدة التى تمثل المذاهب معادلا فنيا لها : " فكل مذهب يتطرف فى اتجاهه حتى يصل الى زمن يحس الناس فيه بأنه ليـس كافيا للتعبير ، ويمضون يبحثون عن أسلوب جديد " (٢) .

فتقلب المجتمعات الانسانية تحت تيارات فكرية متعاقبة ومتغيرات عامة يتطلب ملاحقـــة طرق التعبير لهذه المتغيرات .

وهذه التيارات تفرض تأثيرها تلقائيا على الأدباء والمفكرين ، فيتمثلونها وتنعكس خـلا ل ابداعهم ، مشاركين فى أوجه النشاط الانسانى بطرق أدبية تتلاءم وحاجة هـــذه المجتمعات . ولم يمتد تأثير التيارات الفكرية والظروف العامة الى المذهب الأدبـــى فحسب بل الى الشكل الفنى نفسه . فنجد الشعر مثلا يسود خلال القرن السابع عشـــر على حين غلب النثر فى القرن الثامن عشر ، " ويذهب درنكووتر "Drinkwater" الى أن تاريخ النشاط الأدبى بين سنتى ١٩١٤ و ١٩٣٩ ـ أى بين الحربين العالميتين هـــو الى حد بعيد تاريخ القصة . ولا عجب فى ذلك عنده ، فقد كانت هذه الفترة فترة اضطراب اقتصادى وخلقى وعقلى " (٣) . فالقصة وقالبها الفنى تتسع للتعبير عن هذه التوترات النفسية والمتغيرات التى تجتاح الحياة الانسانية .

---

(١) ما الأدب ـ ترجمة د / غنيمى هلال ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦١ ، (٢٤) .

(٢) د / عز الدين اسماعيل ـ الأدب وفنونه دراسة ونقد ـ دار الفكر العربى ١٩٥٨ ، (٤٢) .

(٣) المصدر السابـــق : (٤٦ ، ٤٧) .

وسنحاول خلال عرض ملامح عامة توضيح الصلة بين المذاهب الأدبية ، وبين الملابسات التي نشأت في ظلالها ، ليتضح أنها تركيب فني يعكس صورة صادقة لعصورهـــا ، حتى نصل الى الاتجاه الرمزي ــ موضوع دراستنا ــ فنقف وقفة تأمل واسهاب. وقد كان هذا العرض ضروريا لأن المذاهب ــ كما هو معروف ــ تيارات تتعاقب وتتداخـــل فيؤثر بعضها في بعض ، بالاتفاق أو الاختلاف.

* * *

نبدأ بالقرن السابع عشر ، عصر الأدب الكلاسيكي والنزعة العقلية السائدة . اذ ساعدت فلسفة " ديكارت " على أن تسود هذه النزعة التي رأوها منافية للخيال ، فهم يعتقدون أن : " الخيال غريزة عمياء " (١).

نشأ هذا الأدب في أجواء البلاط ، وتوجه الى طبقة النبلاء ، التي أبدع لخدمة أغراضها فعاش محاصرا بتقاليد هذه الطبقة ، التي نقلت اليه نزعة الحفاظ على التقاليد السائدة فتمثلها خلال المحافظة الدقيقة على قواعد " أرسطو " فقـد تمسكوا بضرورة فصـــل الأجناس الأدبية ، والمحافظة على الوحدات الثلاث . وهذه القيود المكبلة للابداع الأدبي تمثل امتزاجا مع روح العصر ، التي أثرت أيضا في مكانة ــ الشاعر ــ نفسه فراجت بينهم فكرة أن " العبقرية الشعرية موهبة الهية واذا كانت أثمن المواهـــب جميعها ، فمن العدل ألا نخونها بمخالفة قواعد الصنعة " (٢).

وهكذا نجد مكانة الشاعر قد ارتفعت الى مرتبة النبل . وهذا بدوره فرض أن يتوجـــه الى الصفوة ولا يخاطب عامة الناس. وكان رأيهم أن : " للشعر مجال لا تراه كـــل العيون ، فهو لا يتوجه الى سواد الناس لأنهم في الحقيقة لا يمثلون الشعـــب ، اذ هم ثمالته " (٣).

وقد كانت غاية الشعر الفائدة الخلقية ، وبالتالي تحددت للشاعر رسالة اجتماعيـة ، فرضت عليه الاعتماد على التعلم والصنعة. متجاهلا الالهام أو الخيال ، متمسكا بـــأن الأدب انعكاس للحقيقة.

ولأن الشاعر عاش غالبا في أجواء البلاط ، وارتبط بتقاليده ، معبرا عن حاجات الطبقـة الارستقراطية التي يبرزها الشعر المسرحي ، وليس الشعر الغنائي فانه لم يكن حـــرا

---

(١) د / غنيمي هلال ــ الأدب المقارن ــ دار نهضة مصر ١٩٧٠ ، (٣٧٧).

(٢) فيليب فان تيجم ــ المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا ــ ترجمة فريد انطونيوس ، مكتبة الفكر الجامعي ، بيروت. ط / الأولى ١٩٦٧ (١١).

(٣) د / غنيمي هلال ــ الأدب المقارن ــ (٣٧٨).

فى التعبير عن ذاته ، وهو يعيش بين أفراد طبقة عارضوا الذوق الفردى ، وفضلوا العقل لأنه قيمة ثابتة . فالأدب الكلاسيكى أخذ — كما سبق القول — من الفلسفة العقلية جوهره ، وبذا تجاوز الجزئيات الى الكليات . " وأصبح صالحا لكل زمان ومكان" (١).

ولكن هل يسمح المجتمع الانسانى — الدائم التطور — أن يظل للعقل سطوته وللخيال غيابه ؟ هذا ما سيجيب عنه القرن الثامن عشر ، وكانت اجابته حاسمة وظلت كذلك الى أوائل التاسع عشر .

فقد استرد الخيال مكانته ، وكان " كانت " قد قرر أن للخيال صلة بالحواس التى تصدر عنها معارفنا . وبهذا نشأت نزعة جديدة تمثل رد فعل ضد الكلاسيكية بعقلانيتها وجمودها ، فجاءت الرومانسية لتسترد العواطف والأحاسيس الشخصية مكانتها.

وكان ظهور الطبقة البورجوازية ايذانا بتحطيم القواعد التى وضعتها الارستقراطية ومن هذه الطبقة خرج الكتاب والشعراء بمضمون جديد وطريقة أدبية تعبر عن أوضاعها ، ولا تستمد أسباب وجودها من حياة القصور ، كما كان يفعل الكاتب الكلاسيكى .

ان الرومانتيكية تمثل ثورة أدبية ضد تقاليد أدب ارستقراطى . وتمثل التجاوب مع الظروف السياسية التى أحاطت بالمجتمعات التى ظهرت بها . فهى تمثل التحرر الأدبى والعقلى ، الذى يدعو الى تحرر سياسى يماثله .

وقد أوحت الثورة الفرنسية بموضوعات تقترب بالأدب من المجتمع ، فكان اخفاق هذه الثورة وما أحدثه ذلك الاخفاق من نكوص شديد دافعا أن يأتى أدبهم بما يشبه هذيان الحس واضطراب العاطفة . وهنا تبرز ظاهرة الذاتية فى الأدب الرومانسى وتفسيرها . فهى لا تعنى انفراد الكاتب بالتعبير عن ذاته ولكن تعنى قدرته على تلخيص الشعور العام الذى اجتاح عصره . وهنا يتميز عن الكاتب الكلاسيكى بهذه الميزة اذ انصرف عن كل ما يميز الفرد ليعبر عن الانسان فى كل زمان ومكان، مهتديا بالعقل .

بينما اعتمد الكاتب الرومانسى على العاطفة وأنها : " طريق الحقيقة التى لا يتطرق اليها الشك ، لأن الشك خاصة التفكير ، ثم أن العاطفة منبعها الضمير وهو قوة من قوى النفس قائمة بذاتها " (٢). فالنزعة الذاتية فى الأدب الرومانتيكى ماهى الا صوت للمجموع ، اختص الشاعر بالقدرة على التعبير عنه.

---

(١) د / غنيمى هلال — الأدب المقارن — (٣٧٨).
(٢) د / غنيمى هلال — الرومانتيكية — دار الثقافة بيروت ١٩٧٣ (٣٨٢).

وهذا ما أبرزه فيكتور هوجو " Victor Hugo " حينما خاطب قارئا تخيل أنه يرفض مشاركته فى عواطفه فقال له : " آه ما أبعدك عن الحق عندما تعتقد أننى لست اياك " (١).

وأما الموضوعات التى اهتم بها الرومانسيون هى - فى حقيقتها - موضوعات انسانية عامة . كانت مقدمة لما جاء به الاتجاه الرمزى بعد ذلك وتوسع فيه فهم يبحثون : " مشكلة الوجود والمصير فى كل موطن . وفى أعماق أحزانه ورغائبه. وخلال الصور المتعددة للطبيعة . ومن نحن ؟ والى أين نتجه ؟ وما هذا الأنا الذى يفر منا فى ثنايا تيار حياتنا الذى لا ينفك أبدا عن الجريان ؟. وما حقيقة الموت الذى يضع حدا لهذا الجريان المستمر ؟. وما السبب فى وجود هذا الكون الذى تنعكس صورته فى شعورى ؟ ان الرومانتيكية بأسرها لتسرى فيها تلك الخلجات الميتافيزيقية " (٢).

ولهذا كان الشاعر الرومانتيكى عندما يحاول أن يصف الطبيعة يلتصق بها كمهرب من واقعه فيصير جزءا منها وينقلب الوصف الى حقيقة فلسفية . ولقد تطورت هذه الوسيلة الفنية فى الاتجاه الرمزى ، وصارت من التقاليد التعبيرية الأساسية فى الشعر والقصة. فهناك اتجاه فى القصة جعل من الطبيعة معادلا للنفس الانسانية فى تقلباتها وصلتها بالوجود . وذلك يتلاءم والشخصية الرومانسية حيث العكوف على الذات والتراسل مع الطبيعة واستلهام الحقيقة.

ولا يقف تعليل المذاهب الأدبية على علاقتها بالقيم السائدة فحسب ، بل كذلك يتعداه الى الطبيعة البشرية ذاتها ، فنجد مدام دى ستايل . M.de. Steal تقول فى كتابها عن ألمانيا التى ظهرت بها الرومانتيكية بعد انجلترا " ان الألمانى يتميز بأنه عاطفى ويوجه همه الى الأحلام والحياة الاجتماعية لا تستغرق حياته . وهذا عكس ما نجده فى فرنسا . وهو أيضا يميل الى الازدهار القوى لشخصية الفرد وله ميل خاص الى التعمق " (٣).

وتلك الصفات تتلاءم والشخصية الرومانسية حيث العكوف على الذات واستلهامها الحقيقة.

ولكن : هل تستمر النزعة الذاتية ، ويسود الخيال دون الواقع والتجربة ؟

فما يهل النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى نرانا بين يدى مذهب جديد هو الواقعية ، وقد نما هذا المذهب بنمو الصناعة وسيطرة المادية على الفكر ، وتضاعف

---

(١) جوستاف لانسون - تاريخ الأدب الفرنسى - ترجمة محمود قاسم ، المؤسسة العربية الحديثة ، ١٩٦٢ ، (٢٤).
(٢) المصدر السابق : (٢٤٠).
(٣) المصدر السابق : (٢٠٦).

ثروة الطبقة المتوسطة . وقد تغير شكل المجتمع بظهور طبقة جديدة شعبية احتاجت الى من يعبر عنها . ولم تجد هذه الطبقة فى الطريقة الرومانسية متنفسا لآمالها ، وتطلعاتها فى الحياة . فهى تعانى من مشكلات اجتماعية لم يكن الخيال ملائما للتعبير عنها . فاذن لابد من مفارقة عالم الغيبيات الى واقع الحياة . والأخذ بالملاحظة بديلا عن الخيال . ففرية الفنان عن مجتمعه والاكتفاء بالاحتجاج على أوضاعه ، لم يعودا مما يتلاءم وأوضاع المجتمع الجديد .

وفى الوقت الذى كان " ماركس " يطالبفيه بتغيير وضع الانسان فى المجتمع ، كان الأدب يستجيب لهذه الدعوة الجديدة ، ولا سيما بأن الجهود الفكرية قد اتجهت نحو هذه الغاية نفسها . " ففرنسيس بيكون " " وسبينوزا " ومن لف لفهما يضعون أسس الفلسفات العلمية التى تقوم على مبدأ الاستقرا ، والتجربة الموصلة الى الحقيقة وأغلبها كشف عن أن الطبقات الدنيا انما هى فريسة البورجوازية التى تولت الحكم ، وتتضخم همومها فأصبحت فى حاجة لمن يتبنى قضاياها وبفلسفة " أوجست كومت " ١٧٩٨ ـ ١٨٧٣ . الوضعية " Positivism " لفت الأنظار الى ضرورة الاهتمام بالواقع فى ذاته وبجانبه المطلقات . وهذا دفع بالفكر الى أن يهتدى الى الحدس دون الخيال .

وأما " جون ستيوات مل " "John Sturat Mill" فقد استهدف بفلسفته التجريبية " Experimental " الى أن التجربة هى صمام الأمن ازاء الخطأ والممارسة والتجريب يؤديان الى معرفة الحقائق . والعلوم التجريبية هى التى تمدنا بالمعرفة اليقينية ولهذا حاول الفنان تمثل موقف العالم فكان : " عدم احساس العالم أمام الطبيعة التى يدرسها ، يشبه موقف الفنان من الانسانية التى يصفها " (١) .

ولأن ارادة التغيير قائمة والنفس الانسانية معقدة التركيب فقد تعددت النماذج فى الأدب الواقعى ، فهذا الموقف يفرض على الأديب أن يعطى شخصياته الطابع العام لنموذج معين فيقدم الانسان " بمقدار ماهو الصورة لمجموعة انسانية " (٢) . فهى لا توجد على نسق خاص يتميز بتكوين نفسى يتأبى على التكرار كما ستقدم لنا النماذج المتعددة خلال الشخصيات الرمزية .

وقد قال " هيبوليت تين " " Taine " ناقد هذه الفترة أن العمل الأدبى هو نتاج البيئة والعصر والسلالة . وحركة التطور الأدبى تتأثر بهذا كله . حتى

---

(١) فيليب فان تيجم ـ المذاهب الأدبية الكبرى ـ (٢٤٦) .

(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة .

انه يقول ان : " شكسبير ـ مثلا ـ ليس سوى منتج يعبر عن مركبات مختلفة لهذه القوى " . (١) .

فلا عجب أن يكون الأدب ـ فى تلك الفترة ـ انعكاسا حقيقيا لتلك الروح العلمية التى اجتاحت العصر ، فقد كانت فى انسجام " والمكتشفات العلمية التى حققتها تلك الفترة ومع نظرتها الاجتماعية والسياسية " (٢) .

وقد اتجهت الواقعية نحو معالجة قضايا اجتماعية استطاعت أن تنهى القطيعة بين الشعر وبين تبنى المشكلات الاجتماعية .

بل ان الأوضاع الاجتماعية أثرت فى الشكل الفنى نفسه للقصص فنلاحظ مثلا فى الكثير منها الاتجاه الى عدم وضع نهايات وتضمنها روحا تشاؤمية ربما لينبه المجتمع وقياداته الى خطر تلك المشكلات وضرورة الاهتمام بوضع حلول لها .

وقد أكد زولا أن " المجتمعات هى التى تصنع التطور الأدبى متبنيا فكره مدام " دىستايل " بأنه " مهما كانت عبقرية الكاتب فما هو الا عامل بسيط ، يحمل حجره ويكمل على قدر قوته الصرح الوطنى القديم " . (٣)

بل أن الناقد " برود ون " يذهب الى أن "الفنان ما هو الا العامل المجهول اللا واعى تقريبا لقوى وميول وأحلام مجموعة اجتماعية (٤) .

ومع ذلك هل يستمر ـ حتى نهاية القرن ـ اغراق الفرد فى عالم الملاحظة والتجريب ، وانهماك قواه النفسية فى عالم الماديات ؟ أم سيتوق الى العودة للخيال واستلهام الذات معرفة الحقيقة ، التى عجز العلم عن كشف كل طلاسمها ؟ ..

هذا ما ستجيب عنه الصفحات التالية من البحث .

* * *

---

(١) أنظر جوستاف لانسون ـ تاريخ الأدب الفرنسى ، (٣٩٠) .
(٢) مارى . م . كولم . ـ الأديب وصناعته ـ مقالة بعنوان : الطريقة الحديثة فى الأدب ، مكتبة منيمنة بيروت ١٩٦٢ ، (١٢١) .
(٣) جوستاف لانسون ـ تاريخ الأدب الفرنسى ـ (٢٤٣) .
(٤) فيليب فان تيجم ـ المذاهب الأدبية الكبرى ـ (٣٠٨) .

الفصـــل الأول

- تحديـــد الرمـز والرمزيـــة .
- دواعى الرمـــز وأنماطـــه .

" تحدث ماركس عن تغيير شكل العالم ، وتحدث
رامبـــو عن تغيير الحياة .

" ســـارتر " (١).

منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر فتحت صفحة جديدة فى حياة المجتمع الانسانى . فقد وضع الانسان فى معادلة بين المادية والمثالية . وكانت الحركة العلمية الوضعيـــة ما تزال فى أوج تأثيرها . حيث الايمان المطلق بالظواهر المادية وكل ما يقف خلفـــه العقل والتجربة . هذا الى جانب تفاقم الاحساس بالظلم الاجتماعى الذى فشا فـــى المجتمع الانسانى وما ترتب عليه من احساس بالاحباط . وقد ضاعف من وطأته اخفاق المنجزات العلمية فى أن تروى ظمأ الانسان الروحى . وكانت النفوس لاتنى تبحث عن الحلـــول لكثير من المشكلات أو الألغاز المحدقة بهذا الكون .

ولقد انبثقت دعوة أواخر القرن التاسع عشر لهدم الوضعية ومعها البرناسية والطبيعيـــة والكلاسيكية والواقعية ونادت بضـــرورة تحويل الاهتمام الى حياة الانسان الداخليـــة ، لمحاولة فك بعض الأسرار عن علاقة الانسان بنفسه وبالكون من حوله .

فالأدب الواقعى ـ مثلا ـ يهتم بتقديم الصلة بين الانسان والقوى المادية المحيطة به ، بينما ظل الجانب النفسى متواريا لا يكشف عنه ـ بقدر كاف ـ ومن هنا لم يعد يصلـــح هذا الأسلوب فى فترة أنهكت فيها قوى الانسان الداخلية ـ وبخاصة فى فترة الحرب ـ التى أحدثت من الاضـــطراب والفوضى ما تلاشى معه أمن الانسان الداخلى . اذ وجد نفسه فى عصر سمته التوترات المتلاحقة . فانسحبوا الى داخل نفوسهم ، فيما يشبه عدوى سداها الأمراض النفسية ولحمتها . فهى قوى مستنزفة لطاقة الانسان " فامتدت روح هذه الفوضى والعنف الى العقول فرفضوا الحقيقة الواقعية على أنها أحلام مفزعة" (٢).

ويدافع من هذه الظروف ، انبثقت حاجة الى ترك الواقعية بأسلوبها الذى يتجه نحـــو المشكلات الاجتماعية اعتمادا على الملاحظة والتجريب الى ضـــرورة الاهتداء الى طريقـــة أدبية تعكس حركة المجتمع الشـــديدة التوتر ، لتصبح تعبيرا فنيا يكشف عن الواقـــع النفسى للانسان وهو ينوء بثقل هذه الأعباء النفسية المعقدة .

---

(١) ما الأدب ، (٢١٥).

(٢) د . محمد فتوح أحمد ـ الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر ـ دار المعـــارف ، ١٩٧٧ ، (٢٦٩).

وقد بلور سارتر هذه القضية بقوله : " وكما أن العلوم الطبيعية تضع بين يدى علماء الرياضة مسائل جديدة تدفعهم الى وضع رموز جديدة ، فكذا المطالب المتجددة دائما فى المجتمع وفيما وراء الطبيعة تدفع الفنان الى البحث عن لغة جديدة وعن وسائل فنية جديدة (١) . فانسان العصر الحديث فى حاجة الى أسلوب جديد يتلاءم واستكناه ما بداخله بعد أن أثقل بهموم العالم الخارجى فانسحب الى ذاته هربا من مجتمع مشحون بالمشكلات . وهذا الانسحاب من منطقة الوعى الى اللا وعى " هو انسحاب لا تلجأ اليه الا النفس المهزومة . وما منشؤه الا الشعور بأن القيم الاجتماعية الجديدة لا سبيل الى قهرها . ومن لم يرض بحاضره عاش فى ماضيه . ومن لم يرض بما يجرى حوله انطوى على نفسه" . (٢) .

فهذا العصر وما تميز به من أوضاع اجتماعية غير عادلة وما فيه من فوضى وانقلاب فى المعايير جعل المجتمع الانسانى فى وضع حرج . وهذا ما أوضحه اليوت " T.S. Eliot " حينما قال " ان حضارتنا غاية فى التعقيد والتنوع ، وهذا التنوع ، وذلك التعقيد فى تأثيرهما على مشاعرنا المرهفة ، لابد أن ينتجا نتائج معقدة متنوعة ، ولابد أن يصبح الفنان أكثر تركيزا " أو ايحاءا وأقل اتباعا للطريق المباشر حتى لقد يصيب اللغة منه بعض الأذى وهو يحاول أن يعبر عن نفسه " (٣) فالعوامل النفسية ، فى فترة حضارية متوترة ، تاقت الى استلهام الذات أن تحل اللغز " واذا كان اللاهوت وكذلك العلم قد أخفقا فى أن يسندا الانسان ويقدرا ، على استجلاء المعنى الفذ فى نظام الأشياء ، فليس للانسان اذن الا تجربته الخاصة على شكل مجموعة من المادة يعمل فيها وعيه لاستنباط قيم الحياة " . (٤) فطبيعة الذهن البشرى تتوق نحو تخطى الظواهر المحسوسة وتأمل ما وراءها من أسرار ومعان غير واضحة .

ويجب أن نذكر أن هذا التطلع الى خلق أسلوب جديد فى التعبير الأدبى نشأ داخل الأدب الواقعى ـ نفسه ـ اذ بدأ دبيب الحاجة الى التعبير غير المباشر عن أشياء غامضة فى الكون ، تعجز الواقعية عن التعبير عنها ولكنها نبهت اليها . فذكر أن " مثل الواقعية العليا تلبست تلقائيا مظهرا رمزيا " . فابسن "فى مسرحياته

---

(١) ما الأدب ، (٢٤٠) .
(٢) د . لويس عوض ـ فى الأدب الانجليزى الحديث ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٠ ، (٢٣٠) .
(٣) ـ الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر ـ (٤١٤) .
(٤) روبرت مورس لوفت ـ الأديب وصناعته ـ مقالة بعنوان : الأدب والايمان بالحياة ، (٢٣) .

النثرية المتأخرة ، تحول تحولا طبيعيا الى الرمزية " (١) .

على أى حال كانت الواقعية ترتكز على أساس فكرى هو الوصول الى الحقيقة عن طريق الحواس ، والأخذ بالملاحظة والتقصى وتتبع الجزئيات . واهتمت الرمزية بابراز عالم الانسان الداخلى وما يدور فيه من تحولات لكن ليس معنى ذلك أن الرمزية أول المذاهب التى تهتم بالعالم الداخلى للانسان ، فحينما نجد "بلزاك " يهتم بايراد التفاصيل والجزئيات ، فان " عالم الأثواب والمفروشات لم يكن الا المظهر المرئى لعالم روحى " . (٢) واذن فذلك ضرب من الرمز ، ليكن هذا ، والرمزية أسلوب مكثف ومشحون بهذا الاهتمام . على أن كل ما أوردناه انما هو من باب السياسة والاجتماع فى العصر ، فماذا عن الفكر وكيف أصبح جوهره ؟ بل كيف ارتسمت صورة جديدة للعصر عند الرمزيين ؟ . للاجابة عن هذا — ومثله كثير — لابد أن نلتفت الى الفلسفة الأفلاطونية متمثلة فى نظرية المثل ، التى ترى أن حقيقة الأشياء الظاهرة تكمن فى عالم سابق فى الوجود ، وجود هذه الأشياء وذلك عالم المثل أو عالم الأفكار التى " احتجبت عندما فارقت عالمها الحقيقى ، وهبطت الى الجسم واتصلت به ، وكلما أمعنت النفس فى هذه الحياة العملية وما يستتبعه من الخضوع لحاجات الجسم — اشتد نسيانها للحقائق ، فالنسيان اذن لم يجىء للنفس الا عن طريق المادة ، وهى سبب ما يصيب الانسان من شقاء وما يرتكبه من جرم " (٣) .

وتأتى مساهمة فلسفة "شوبنهور " التشاؤمية فى دعم هذا الاتجاه ، فهى تدعو للوصول الى الحقيقة عن طريق الاغراق فى تأمل الذات والتخلص من أدران الرغبة ، مستهديا بالارادة ، خالصا لهذا التأمل ، حتى يمكن الوصول الى درجة الفناء فى الذات " Nirnànà " . فلابد من حدوث تغييرات أساسية بها تتخلص من كل مطالب الارادة ، التى تغدو فيها الذات أداة للتأمل الخالص تتغلغل به فى قلب الأشياء . فيتم التخلص من مطالب الارادة "عن طريق الفن الذى يمثل العزاء والراحة معا " (٤) هذا بالاضافة الى تقدم أبحاث "فرويد " Freud " فى علم النفس ، والالتفات الى اللاشعور وأنه يكمن فيه جوهر الانسان الحقيقى . وقد ترجم كتاب " هارتمن " فى

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) آلبيريس — تاريخ الرواية الحديثة — ترجمة جورج سالم ، منشورات عويدات بيروت ط / الأولى ١٩٦٧ ، (٥٢) .

(٣) د / درويش الجندى — الرمزية فى الأدب العربى — دار نهضة مصر ، ١٩٧٢ ، (٧٤) .

(٤) د / محمد فتوح أحمد — الرمز والرمزية — (٥١٢) .

فلسفة " اللا وعى " الذى أعطى الفرق بين الشعور واللاشعور . بالاضافة الى "برجسون" ونظريته التى تتلخص فى أن العقل وسيلة للعمل ، بينما الحدس وسيلة للمعرفة فهو : " رؤية لا تكاد تتميز عن الموضوع المرئى " (١) .

والحدس ـ كما يظن البعض ـ ليس طريقا ميسورا للمعرفة ، ولكنه يفرض نوعا من الجهد ـ والعمليات الذهنية . فهو ليس أدنى من العقل ، بل انه يعلوه . وهو على الأصح : " معرفة فائقة للعقل " (٢) فالحدس هو وسيلة الكشف عن المطلق وتنمية الاتجاه الى الميتافيزيقيا .

وعلى هذا النحو تهيأت الفرصة من جديد الى الميتافيزيقيا ، فقد ظهر أنها ليست ترهات ، بل ان لها أثرا كبيرا فى حياة الانسان ، وأدى هذا الالتفات الى استكناه كثير من الغيبيات الأمر الذى أدى الى اضعاف تأثير فلسفة " أوجست كونت " . الوضعية بدعوتها الاهتمام بالواقع دون المطلقات .

وصاحب ذلك نزعة الى الاطلاع على الآداب الشرقية التى تعبق باشعاع روحى فأطيل النظر الى العقائد الدينية القديمة " كعقائد ايزيس وأزوريس وبوذا وزرادشت " (٣) .

وفى الوقت الذى تهاوت فيه الواقعية أمام هذه التطلعات الجديدة ظهر ديوان بودلير " Charles Boudelair " أزاهر الشر " les Fleurs du Mal " ونظرية العلاقات أو التراسل " Correspondances " حيث تتحول مظاهر الطبيعة المجردة الى معطيات حية ، نجد لها أثرا من منفذ الى أعماق الانسان . وما قد يدرك بالسمع وما يعرف بالشم ربما تعرفه العينان . وهكذا حتى لتبدو ضرورة فكرة وحدة الوجود .

ولكن ما أصول تلك النظرية ؟ لنعد الى بلزاك ، وهو من أبرز كتاب الواقعية فنراه يقول : " ان الصوت واللون والعطر والشكل كلها ينبوع واحد " . (٤) وتنهيمات أفلاطونية يقول مرة أخرى "ان كل مافى الارض مرتبط بأسبابه السماوية بحيث أن المظاهر الأرضية

---

(١) د . زكريا ابراهيم ـ برجسون ـ دار المعارف بمصر ، ط / الثانية ١٩٦٨ ، (٢٣٤) .
(٢) أنظر : المصدر السابق ، (٣٦ ، ٣٧) .
(٣) أنظر : د / محمد فتوح أحمد ـ الرمز والرمزية ـ (٥٤) .
(٤) أنطون غطاس كرم ـ الرمزيه والأدب العربى الحديث ـ دار الكشاف ، بيروت ١٩٤٩ ، (٤٤) .

لها علاقة بما فى السماء وهى تحمل بعض معانيه (١) .

فلم يكن لمثل هذه الأفكار الفلسفية أن تحدث تأثيرها تحت ظلال الواقعية ، فانسزوت حتى دعت الحاجة للتعبير عن الوجدان ، والظواهر الكونية الغامضة الى جانب اقامة الصلة من وجهة نظر الرمزيين — بين الانسان ومصيره أو بين الأشياء المادية وقوى مافوق الطبيعة التى تكون مصيره ، بعد أن طال الاهتمام — على يد الواقعيين " بين الانسان وحياته أى الأشياء والقوى المادية التى تلامس حياته " (٢) . " فان الرمزى يهتم باقامة الصلة بين الانسان ومصيره أى الأشياء المادية وقوى ما فوق الطبيعية التى تكون مصيره " (٣) .

واذن فنحن ازاء واقعية جديدة هى واقعية النفس البشرية وهى واقعية " مجددة يحل فيها المزاج محل الموضوعية ، ويحل فيض القريحة محل الاجتهاد القصصى حيث يأخذ الحادث اليومى الغريب مكان المشكلة الاجتماعية " . (٤) .

أى أن الكاتب الرمزى وجد نفسه — على حد تعبير " والاس فاولى " : " غارقا فى هاملتية معاصرة " . (٥) فهاملت نموذج للتوغل داخل النفس الى حد ينجم عنه تخبط بين القلق والحيرة . ونحن نجد له شبيها تماما فى الصفات فى الأدب الرمزى بوجه عام ، الا أن الفارق يظل قائما بين بطل " شكسبير " والبطل المعاصر . لأن صراع هاملت يدور فى نطاق من المنطق يميز عصره والنظام . فى حين لا يستطيع بطل العصر الحديث الاستمرار فى توازنه لأنه فى عصر يفرض عليه الاهتزاز وفقدان المعنى .

وأظن أنه قد آن الآوان لوضع حد أو تعريف للرمز والرمزية . فتلك ضرورة تفرضها الدراسة . على الرغم من كثرة التعرض لهذا المصطلح . فهى كثرة تدفعنا لمعاودة التحديد لتجنب أى اضطراب أو خلط أو تداخل .

ولنبدأ بتعريف فضفاض ، يكشف عن جانب من فلسفة الرمز وهو يقول أن " الفنون فى جوهرها رمزية لأنه يبدأ بالانتقاء والتأليف ، والتوجيه ، فهو يغادر ميدان المواد الخليطة ، ويدخل عوالم الرمز " . (٦) . فكل ابداع فنى هو رمز لانتقاء الكاتب ، لجوهر الأشياء

---

(١) أنطون غطاس كرم — الرمزية والأدب العربى الحديث — (٤٤) .
(٢) والاس فاولى — عصر السريالية — ترجمة خالدة سعيد ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ ، (١٦٩) .
(٣) المصدر السابق : (١٧٠) .
(٤) ر . م . البيريس — تاريخ الرواية الحديثة — (٣٤٢) .
(٥) عصر السريالية ، (٢٢) .
(٦) سترثرز بيرت — الأديب وصناعته — مقالة بعنوان : زيف الواقعية ، (١٦٠) .

كما تمثلت في ذهنه ، فعبر عنها في شكل جديد هو مزيج من الواقع الذى أضيفت اليـــه ملكات الفنان الابداعية .

وننتقل الى أقدم تعريف للرمز على المستوى اللغوى قدمه " أرسطو " فهو يرى : " أن الكلمات رموز لمعانى الأشياء ، أى رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولا ثم التجريدية " وأن " الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس ، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقـة "(١).

أما على المستوى النفسى : فقد قال "فرويـــد" أن قيمة الرمز " بمدى دلالته على الرغبات المكبوتة في اللاشعور نتيجة الرقابة الاجتماعية الأخلاقية" . (٢) .

وقد جاء في الموسوعة الانجليزية أن الرمز هو : مصطلح أطلق على الموضوع المرئـــى الذى يمثل بالعقل تشابه " Semblance " شيء غير مرئى " not shown " ولكنه تحقق عن طريق الارتبـــاط به أو التداعى " Association " (٣) .

وفي معجم اللغة الفرنسية " الرمز هو اشارة ترتبط بالموضوع الذى نريد الكشف عـــن فكرته " (٤) .

وهذه التعريفات حصرت الرمز ضمن اطار الدلالة والمشابهة التي تقوم بين شيء ينتمي الـى عالم المحسوسات وآخر ينتمي الى المجردات. وهذه مرحلة أولى من مراحل الرمز تطـــورت بعد ذلك ليصبح كما قال " يونغ " نوعا من " التصفية الذهنية وهى الجوهر المركـــز لمفهوم ما " (٥) فالرمز ليس نقلا عن الواقع ، وانما أخذ منه ثم تجاوزه وتكثيفه ليتخلص من واقع المادة ليرتفع الى مجال التجريـــد . وهنا يتحقق الايحاء " Suggestion " بالانفعالات والأفكار عن طريق اعادة خلقها " Re-creation " في العقل كـــى يتم التعبير عن حالات نفسية تستعصى على التفسير أو التقرير ، كفكرة الحياة والمـــوت واللانهائية وفقـــدان المعنى .

وهذا وجد ما أطلق عليه بعدا ثالثا " A third dimension " (٦) هـــــذا

---

(١) نقلا عن د / محمد فتوح أحمد ــ الرمز والرمزية ــ (٣٦) .
(٢) المصدر السابق : (٣٧) .
(٣) Encyclopedia Britannica.Vol. 21/ year 1956, p. 701.
(٤) Grand Larousse Encyclopedique,Tome 12.Symbolism,Paris 64.
(٥) المصدر السابق ، (١١) .
(٦) Charles Chadwick. Symbolist.First published , 1977.P.6.